نظرية السمات البيولوجية والعصبية عند هانز أيزنك (PEN Model)

(Neuropsychological Theory of Personality - PEN Model & Eysenck's Biological)

- **الأهداف التعليمية:**

1. فهم االفكر الإبستمولوجي لعلم النفس الفارقي ونظريات السمات.
2. استيعاب البناء الهرمي التراكمي للشخصية من السلوك الملاحظ إلى النمط الكلي.
3. ربط السلوك الظاهري بالميكانيزمات العصبية والوراثية (جذع الدماغ، الجهاز اللمبي، الهرمونات).
4. استيعاب أدوات القياس النفسي (EPQ) والتطبيقات العيادية المترتبة على نموذج PEN.

المحور الأول: المدخل التاريخي والمقارنة الإبستمولوجية

تمهيد: انتقل دراسة الشخصية في القرن العشرين من التكهنات الفلسفية والأطر النمطية القديمة (مثل نماذج بقراط وجالينوس) إلى الاتجاه التجريبي والإحصائي الذي يعتمد على القياس المباشر (Psychometrics).

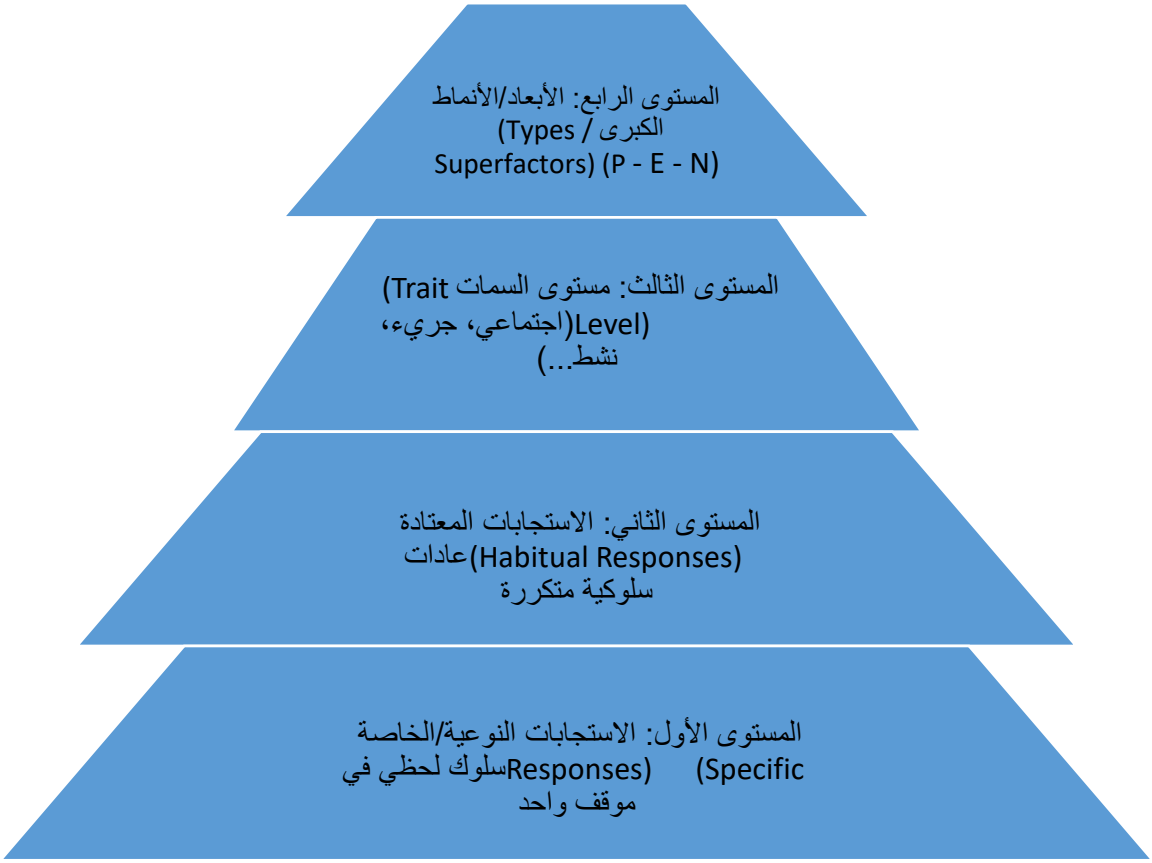
هدف نظرية السمات هو الاختزال العلمي؛ أي تبسيط الكم الهائل من السلوكيات البشرية اليومية في أقل عدد ممكن من الأبعاد التفسيرية الدقيقة.

هانز أيزنك (Hans Eysenck - 1916–1997)

- رفض أيزنك الاكتفاء بالوصف الإحصائي "الرياضي العائم" للمتغيرات.
- **مبدؤه الأساسي:** "لا يكفي أن نثبت إحصائياً وجود عامل نفسي، بل يجب إيجاد ميكانيزم فسيولوجي وعصبي يفسر ظهور هذا العامل"؛ فالشخصية لديه نتيجة لتبادل المستويات الوراثية والعصبية مع البيئة.

المحور الثاني: الترتيب الهرمي لبناء الشخصية والنموذج الثلاثي

تُبنى الشخصية عند أيزنك وفق تنظيم هرمي تراكمي يتصاعد من القاعدة (السلوكيات الفردية اللحظية) إلى القمة (الأبعاد البيولوجية الكبرى):



شرح مستويات الترتيب الهرمي:

1. **المستوى الأول: الاستجابات النوعية / الخاصة (Specific Responses)**هي أفعال أو تصرفات فردية تلاحظ في موقف محدد ولإشارة زمنية واحدة (مثال: تلميذ يرفع يده لإجابة على سؤال في حصة اليوم). هذه الاستجابة قد تكون عابرة وخاضعة لظروف الموقف ولا تعبر بالضرورة عن نتاج ثابت للشخصية.

2. **المستوى الثاني: الاستجابات المعتادة (Habitual Responses)** تتكون عندما تتكرر الاستجابة النوعية بنفس الطريقة في مواقف مشابهة لتصبح "عادة سلوكية" (مثال: الطالب الذي يتحدث دائماً إلى زملائه ويطرح الأسئلة في بداية كل محاضرة).

3. **المستوى الثالث: مستوى السمات (Trait Level)** تنشأ السمة عند الترابط الإحصائي التجميعي لعدة استجابات معتادة (مثال: ترابط عادة التحدث مع الغرباء + عادة المشاركة في الأنشطة + عادة السفر الجمعي = يتشكل منها جميعاً سِمة "الاجتماعية" Sociability أو "الجرأة" Assertiveness).

4. **المستوى الرابع: مستوى الأبعاد / الأنماط الكبرى (Type / Superfactor Level)** يمثل قمة الهرم التفسيري. ينتج عن الترابط الإحصائي الوثيق بين عدة سمات متكاملة لتشكل بُعداً كلياً شاملاً، وهو ما صاغه أيزنك في **نموذج PEN**:

الأبعاد الثلاثة الكبرى بمركباتها المفهومية (PEN Model Dimensions):

1. الانبساطية مقابل الانطواء (Extraversion vs. Introversion - E)

- **تعريف البُعد:** القطبية بين التوجه نحو العالم الخارجي والتوجه نحو الذات والداخل.

- **السمات المكونة للمفهوم:**
  - **الانبساطي (Extravert):** اجتماعي (Sociable)، يحب البحث عن الإثارة (Sensation-seeking)، حيوي (Lively)، جريء (Assertive)، اندفاعي (Impulsive).
  - **الانطوائي (Introvert):** هادئ (Quiet)، متأمل (Reflective)، يحب العزلة (Solitary)، حذر (Cautious)، منتظم (Ordered).

2. **العصابية مقابل الاستقرار الانفعالي (Neuroticism vs. Stability - N)**

- **تعريف البُعد:** درجة الاستجابة الانفعالية والاستقرار العاطفي أمام ضغوط الحياة.
- **السمات المكونة للمفهوم:**
  - **مرتفع العصابية (High Neuroticism):** قلق (Anxious)، مكتئب (Depressed)، متقلب المزاج (Moody)، منخفض تقدير الذات (Low Self-esteem)، كثير الشعور بالذنب (Guilt-prone).
  - **المستقر انفعالياً (Stable):** هادئ (Calm)، متزن (Even-tempered)، متحكم بانفعالاته (Controlled)، غير سريع الانزعاج (Unreactive).

3. **الذهانية مقابل ضبط الاندفاع (Psychoticism vs. Impulse Control - P)**

- **تعريف البُعد:** مدى التوافق الاجتماعي والانفعالي والقدرة على السيطرة على الاندفاع والسلوكيات المضادة للمجتمع.
- **السمات المكونة للمفهوم:**
  - **مرتفع الذهانية (High Psychoticism):** عدواني (Aggressive)، متمركز حول الذات (Egocentric)، بارد العواطف/قاسٍ (Tough-minded/Cold)، اندفاعي (Impulsive)، غير متوافق اجتماعياً (Antisocial).
  - **منخفض الذهانية / منضبط الاندفاع (Impulse Controlled):** متعاطف (Empathetic)، متعاون (Cooperative)، ملتزم بالنظم الاجتماعية (Socialized)، دافئ الانفعال (Warm).

المحور الثالث: الأسس البيولوجية والعصبية وميكانيزم التأثر بالمثيرات

قاعدة أيزنك الفسيولوجية الأساسية: يسعى الجهاز العصبي للإنسان دائماً للحفاظ على **"مستوى الاستثارة الأمثل" (Optimal Level of Arousal)**؛ وهو نطاق التوازن الدماغي بين الخمول والملل من جهة، وفرط التنبيه والإرهاق العصبي من جهة أخرى.

(E) الانبساطي --- يبحث عن مثيرات خارجية --- مستوى استثارة منخفض (خمول)

(I) الانطوائي --- يهرب من المثيرات الخارجية --- مستوى استثارة مرتفع (إرهاق)

1. **الأساس العصبي لبُعد (E) وميكانيزم التأثر بالمثيرات:**

- **البنية العصبية المسؤولة:** التشكيل الشبكي النشط (Ascending Reticular Activating System - ARAS) في جذع الدماغ، وهو المسؤول عن تنبيه القشرة الدماغية وتعديل استثارتها.

أ. الانطوائي (Introvert):

- **الميكانيزم البيولوجي:** يمتلك استثارة قشرية أساسية (Baseline Cortical Arousal) مرتفعة طبيعياً وبشكل مزمن (دماغه في حالة تنشيط داخلي مستمر).
- **طبيعة التأثر بالمثيرات:** يتأثر بالمثيرات الخارجية بسرعة وبشدة عالية. عندما يتعرض لمثير بسيط، تضاف الاستثارة الخارجية إلى الاستثارة الداخلية العالية أصلاً، فيصل سريعاً إلى **فرط الاستثارة (Over-arousal)** وتجاوز عتبة تحمله.
- **السلوك الناتج:** ينسحب ويفر من الضوضاء والحفلات والزحام ليحمي جهازه العصبي من الإرهاق التنبيهي.

ب. الانبساطي (Extravert):

- **الميكانيزم البيولوجي:** يمتلك استثارة قشرية أساسية منخفضة بطبيعتها (دماغه في حالة خمول تنبيهي نسبي).
- **طبيعة التأثر بالمثيرات:** لا يتأثر بسهولة بالمثيرات العادية وتمر عليه دون إحداث نشاط يذكر، مما يجعله يشعر بالملل والخمول.
- **السلوك الناتج:** يبحث بشكل مستمر ونشط عن المثيرات القوية (المغامرة، الصخب، الحفلات، التفاعل) ليرفع مستوى نشاطه العصبي ليصل به إلى الحد الأمثل.

2. <u>الأساس العصبي لبُعد (N) وميكانيزم التأثر بالضغط النفسي:</u>

- **البنية العصبية المسؤولة:** الجهاز العصبي الذاتي (Autonomic Nervous System - ANS) والنسيج اللمبي / الجهاز الحوفي (Hippocampus & Limbic System - Amygdala) المسؤول عن الاستجابات الانفعالية والخوف.

أ. مرتفع العصابية (High Neuroticism):

- **الميكانيزم البيولوجي:** يمتلك جهازا لمبياً فائق الحساسية وسريع الاشتعال مع انخفاض عتبة التنشيط الفسيولوجي (Low Activation Threshold).
- **طبيعة التأثر بالضغط:** عند تعرضه لأي موقف ضاغط أو مربك، يستجيب جهازه العصبي اللاإرادي (السمبثاوي) بشكل حاد وسريع (ارتفاع ضربات القلب، تعرق، قلق)، وتستغرق عودته لزيادة التوازن وقتاً طويلاً.

ب. المستقر انفعالياً (Stable):

- **الميكانيزم البيولوجي:** يتميز بعتبة تنبيه عالية في الجهاز اللمبي.
- **طبيعة التأثر بالضغط:** يتعامل جهازه العصبي بمرونة مع الضغوط اليومية ويستعيد توازنه الفسيولوجي والوجداني بسرعة وسهولة.

3. <u>الأساس البيولوجي لبُعد (P) وميكانيزم السلوك الاندفاعي:</u>

- **البنية البيولوجية والهرمونية:** يرتبط هذا البُعد بمستويات الهرمونات الذكرية (الأندروجينات مثل Testosterone).

يرتبط بانخفاض مستوى إنزيم مونوأمين أكسيديز (Monoamine Oxidase - MAO) في الدم، وهو الإنزيم المسؤول عن تنظيم الناقلات العصبية (الدوبامين/ناقل المكافأة والتعزيز والسيروتونين/ معدل المزاج والهدوء والرضا)

- **ميكانيزم التأثر بالسياق الاجتماعي:** الأفراد مرتفعو الذهانية يمتلكون ضعفاً بيولوجياً في كبح الدوافع الذاتية (Deficit in Behavioral Inhibition).

يكونون أقل تجاوباً وتأثراً بالاشتراط الاجتماعي والقواعد الأخلاقية والجزاءات العقابية، مع انخفاض قدرة الجهاز العصبي لديهم على معالجة المشاعر العاطفية للآخرين (ضعف التعاطف Bio-empathy).

المحور الرابع: التطبيقات الإكلينيكية وقياس الشخصية

1. قياس الشخصية عند أيزنك: مقياس EPQ

- **أداة القياس:** مقياس أيزنك للشخصية (Eysenck Personality Questionnaire - EPQ).
- **التحويل المعياري:** تُحول الدرجات الخام للمفحوص إلى درجات تائية معيارية (T-Scores) للتمكن من مقارنة الفرد بالمعايير النمائية لفئته العمرية وجنسه.
    - **مقياس الكذب / المرغوبية الاجتماعية (Lie Scale - L):**
      مقياس مدمج داخل EPQ لقياس مدى ميل المفحوص لتقديم صورة تجميلية غير حقيقية عن ذاته (Social Desirability).
    - يضمن هذا المقياس صدق الاستجابات، وإذا تجاوزت الدرجة حداً معيناً تُستبعد الاستمارة إكلينيكياً.

استخراج البروفايل النفسي <--- L فحص مقياس الكذب <--- T-Scores تحليل الدرجات المعيارية <--- EPQ نتائج مقياس الموحد (P-E-N Profile)

2. <u>قراءة البروفايل النفسي والتطبيقات العيادية (Psychological Profiling)</u>

- **التشخيص العيادي المركب:** يرى أيزنك أن الاضطرابات النفسية تنشأ من التفاعل المزدوج بين الأبعاد الكبرى:
    - **ارتفاع العصابية (High N) + انخفاض الانبساطية (Low E / Introversion):** ينتج عنه بروفايل مهيأ لاضطرابات القلق، الاكتئاب المفرط، الوسواس القهري، والمخاوف المرضية (Dysthymic / Introverted Neurosis).
    - **ارتفاع العصابية (High N) + ارتفاع الانبساطية (High E):** ينتج عنه بروفايل مهيأ للاضطرابات الهستيرية، الاستعراضية، أو تقلب المزاج الحاد (Hysterical / Extraverted Neurosis).
    - **ارتفاع الذهانية (High P):** يعد مؤشراً خطيراً على احتمالية تطوير السلوك الإجرامي، اضطراب الشخصية المضادة للمجتمع (Antisocial Personality)، أو الانزلاق نحو الاضطرابات الذهانية الصريحة عند التعرض لضغوط بيئية شديدة.

الخلاصة : إن الترتيب الهرمي لنظرية أيزنك يجسد جسراً رابطاً بين **البيولوجيا الموروثة والسلوك الظاهري الملاحظ**. فالسلوك اليومي البسيط (المستوى الأول) ليس حدثاً عشوائياً، بل هو تعبير ممتد عبر العادات والسمات ليعكس إستراتيجيات الجهاز العصبي (المستوى الرابع) في التكيف مع العالم الخارجي والوصول للاتزان البيولوجي.

إضافات

- **في جانب التشخيص:** عدم الانخداع بالسلوك الظاهري العابر (المستوى الأول) وتتبعه عبر العادات لتحديد البُعد البيولوجي الأصلي المتحكم فيه.
- **في جانب التدخل العلاجي والتربوي:**
  - الانطوائي يحتاج إلى بيئة ذات تنبيه منخفض وبرامج تعديل سلوك هادئة وتدريجية لأن استثارته الداخلية عالية.
  - الانبساطي يعتمد على البرامج التفاعلية النشطة والتعزيز الخارجي المباشر.
  - مرتفع العصابية: التدخل يتطلب بيئة آمنة ومستقرة تماماً تقل فيها المفاجآت، والتركيز على تقنيات التنظيم الانفعالي (كالاسترخاء والتنفس الحجابي) وإعادة البناء المعرفي لتقليل الحساسية المفرطة تجاه التهديد والنقد، مع تجنب أساليب التوبيخ المباشر.
  - مرتفع الذهانية يتطلب برامج واضحة البنية والحدود القاطعة لضبط الاندفاعية المرتفعة. مع تدريبات سلوكية معرفية تركز على التوقف والتحكم قبل اتخاذ القرار